

قراءة في كتاب تناقضات الحداثة في مصر للكاتب أحمد زايد

بقلم: د. عبد الرزاق أمقران

جامعة محمد لين دباغين سطيف2

خص أحمد زايد، الباحث المصري، المجتمع المصري بدراسة نظرية ثرية ومتشعبة توزعت على فصول عدة يشملها كتاب تناقضات الحداثة في مصر، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، القاهرة، 2005، إلا أن اهتمامنا ولغايات علمية وإجرائية، ذهب نحو المقاربات التي اعتمدها عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية الأسبق، بجامعة القاهرة، في تحليله لمفهوم العولمة. اجتهدنا في الورقة التالية، تقديم قراءة مركزة لمضامين الكتاب متتبعين حضور مفهوم العولمة في البناء النظري ومحاولين البقاء أوفياء لطروحات الكاتب. يقترح الباحث مفهوم عولمة الحداثة بديلاً لمفهوم العولمة ليؤكد غايتين بارزتين في مضمون دراسته:

1- عمل المفكر في دراسته على الكشف عن العلاقة الجدلية القائمة بين آليتي التكامل والتفكيك واللذان سمحتا له بالوقوف على جملة من التناقضات والصراعات الداخلية التي تتجاذب المجتمع المصري والتي هي نتيجة لعولمة الحداثة. هذه التناقضات والصراعات عندما ينظر إليها بشكل أفقي، تبيّن المجتمعات الطرفية (ومنها المجتمعات العربية) في حالة تآكل مستمر، ومن جهة أخرى تدعم فيها صورة للحداثة مختلفة عن صورة نظيرتها في مركز العالم المتقدم.

2- توظيف مفهوم عولمة الحداثة برأي المفكر يدحض مجموعة من الأوهام كما يسميها، وهي:

- وهم بأن العولمة ظاهرة جديدة، برزت فقط عندما بدأ استعمال المفهوم في العشرين سنة الماضية.

- وهم بأن العولمة تحول العالم إلى قرية واحدة.

- وهم بأن العولمة تمثل تحدياً جديداً للبشرية.

- ثقافة العولمة: آلية توحيد العالم: يقدم أحمد زايد تحليلاً واضحاً وشاملاً للآليات التي تشتغل بها عملة الحداثة وميّز بين الآليات التي تعمل على توحيد العالم، وعلى الأقل إنشاء آفاق للتشابه، وبين آليات تعمل على تفكيك الثقافات الوطنية والتي بنظر الباحث ولدت ردود أفعال محلية تجعل من توحيد العالم محض وهم.

اقترح الباحث مجموعة من الخصائص مرتبطة بعملة الحداثة يبعدها التوحيدي نلخصها في مايلي:

- ثقافة العملة ثقافة موجهة: هي ثقافة تميل إلى أن تكون موجهة تسعى إلى تحقيق أهداف اقتصادية (الربح) أو سياسة (الأدلة) أو ثقافية (تدعيم صورة معينة)، فهي بذلك ثقافة تنتفي عنها صفة التلقائية والنمو العفوي.

- ثقافة نخبوية تفتقر إلى قاعدة شعبية، لا تعبر عن حاجات محلية، ولا تلتزم بأشكال ومضمون التراث الثقافي. ثقافة نخبوية ليس لأنها تنحدر من دوائر عليا مبهما وغامضة فحسب، ولكن أيضا لأنها موجهة إلى نخب المجتمعات، وهي الطرف المستقبل الفعلي للعملة.

- تؤدي هذه الثقافة النخبوية إلى تركيز القوة، والقوة في المقام الأول قوة تكنولوجية مرتبطة بالمشروعات الصناعية ذات الصبغة الكونية كشبكات الكمبيوتر والانترنت. هذا الواقع فرض أجندة بحثية جديدة تعكس تكيف البحث الاجتماعي والثقافة معه، ومنه أطلقت عدة مفاهيم جديدة ومنها الثقافة الإلكترونية، الفضاء الإلكتروني، الجماعات الافتراضية،... والنتيجة برأي الباحث: "الهروب من الجماعة المحلية إلى عالم الفضاء الإلكتروني قد يخلق التزاما تجاه ثقافة المركز، وينزع الإنسان من عواطف الانتماء إلى هوية بذاتها وإلى حضارة بذاتها، ويجعله يرمي ذاته في عالم لا متناه من الأزرار وشاشات العرض"¹.

¹ أحمد زايد، تناقضات الحداثة، ص 24.

- ثقافة تمتلك ارتباطا وثيقا بثقافة الاستهلاك. نشر الحداثة يرتبط بمجموعة كبيرة من العمليات تقوم بنشر قيم ورموز وأساليب السلوك ذات الصلة بالاستهلاك. السلوك الاستهلاكي في عوامة الحداثة يتحول إلى نوع من التمييز الاجتماعي والذي يؤدي إلى إرساء التقليد والتنافس كقيمتين اجتماعيتين لهما حضور قوي في المجتمع، ونتيجة ذلك هي أن يصبح الناس عبيدا لثقافة يصنعها لهم الآخرون تفرض عليهم ولا يشاركون في صنعها.

- تعمل ثقافة العوامة على فرض نماذج وصيغ موحدة عبر العالم وهي من خلال عملية النمذجة هذه -ويرأي الباحث- إنما تعمل على فرض النموذج الأمريكي.

- ثقافة العوامة تنمذج الحياة على غرار السوق ولا تترك مجالاً لمكونات الشعور المشترك بالهوية والاستمرار في الوجود والجماعية. النمذجة تعني في ما تعنيه، نزع عالم الحياة المرتبط بالعلاقات الاجتماعية التي عرفت وتعرف بها المجتمعات المحلية.

- ثقافة العوامة ثقافة قائمة على التهويمات والزيف. وبخصوص هذه المسألة يؤكد الباحث على أنّ أشكال التفاعل بين البشر تحدده مجموعة من التمثلات المتخيلة والصور الذهنية المنمطة. ثقافة العوامة تخلق عالماً جديداً يخلو من المعاني الحقيقية ويزخر بالصور التي تدخل الأفراد في عالم من الزيف وتبعدهم بشكل تدريجي وباستمرار عن الواقع وتجعل منهم أسرى لهذا العالم.

تفكيك وتآكل الثقافات الوطنية: يؤكد أحمد زايد في دراسته بأن عوامة الحداثة تعمل بآليات تتسبب في تفكيك الثقافات الوطنية إضافة إلى الآليات التي تستهدف توحيد العالم. عوامة الحداثة، وإن ظهرت على أنها عوامة تمكنت من جعل العالم المتقدم يبدو موحداً توحيدا على مستوى قمة الهرم، فإنّ المجتمعات التي تقع في قاعدة هذا الهرم والتي لا تزال تبحث في قضايا التاريخ والهوية والقومية، تبرز عجز هذا الشكل المتأخر من الحداثة عن بلوغ مراميه. يستعرض أحمد زايد في دراسته مجموعة من المناحي النظرية تؤكد في مجملها على عمليات تعدي الحدود أو تحطّي الحدود لتدفقات العوامة، بينما يؤكد من جهته على أنّ عمليات

العولمة تدفع داخليا إلى مزيد من إدراك الحدود والفواصل، ونوجز في ما يلي أهم القضايا التي طرحها الباحث في مسألة قدرة الثقافات الوطنية للمجتمعات الطرفية على إعادة إنتاج مكوناتها من تجاوز حالات التفكيك.

- تؤكد شواهد ميدانية عديدة في المجتمعات العربية وغيرها على أن آليات التفكيك تعيد إنتاج الارتباط بالمكان وتسهم في إدراك الأفراد بالحدود المكانية بالرغم مما تتعرض له المجتمعات من تأثير عولمي يجرها بقوة نحو إلغاء حدود المكان.

- تعمل عولمة الحداثة على إلغاء الحدود المكانية كما تعمل على إلغاء حدود الزمان، لكن - وبأي الباحث - المزيد من الضغط على المجتمعات الطرفية في هذا الاتجاه، جعلها تفرض أزمتهما الخاصة، بل جعلها تتداخل مع زمن الحداثة. المجتمعات الطرفية، ومن ضمنها المجتمعات العربية، تفرض الماضي كزمن لتجسد من خلاله شكلا من أشكال المقاومة، واللجوء إليه يعبر من جهة أخرى عن عجز في معاشة الحداثة. هذا ما يجسد أزمة الحداثة في هذه المجتمعات والتي تستجيب "لأطر يختلط فيه القديم بالجديد، والتراث والحداثة، ويتشكل الاثنان ويمتزجان في علاقة تحفظهما معا، في ثقافة من نمط ثالث، لا هي تقليدية خالصة ولا هي حديثة خالصة، ولكنها ثقافة تعكس نمطا خاصا من الحداثة، وتولد تناقضاتها الخاصة، وعلاقتها الخاصة"².

- يناقش زايد الطروحات النظرية التي تبشّر بقدرة عولمة الحداثة على إلغاء الحدود الثقافية بين الطبقات ويؤكد على أنّ ذلك أضحي ممكنا في مراكز النظام العالمي من خلال برامج دولة الرفاهية التي تؤسس لمبادئ المساواة، لكن من جهة حدثة الأطراف، تعمل الأنظمة الشمولية وسياسات التكيف الهيكلية على إحداث تباعد طبقي لم يعد يقدر على إخفاء حدة التمييز الطبقي في المجتمعات العربية. الدولة الوطنية في المجتمعات العربية فشلت في ضمان المساواة بين مواطنيها من جزاء السياسات التنموية الموجهة لفئات دون أخرى. يدفع الباحث التحليل

² أحمد زايد، تناقضات الحداثة، ص 6.

إلى أبعاد أخرى حينما يبين أنّ ثقافة العولمة تتسبب في استقطابات داخل الطبقة الواحدة وداخل الجماعة المهنية الواحدة كما أنّها تتسبب في استقطاب أيديولوجي.

يقترح أحمد زايد علينا نموذج الطبقة الوسطى في المجتمعات العربية والتي يمكن أن نميز فيها بين ما يمكن أن ينتمي إلى الطبقة الوسطى وهو متعولم ومميز هو فرص الاتصال بعوالم ثقافة الاستهلاك.

أما مهنيًا، فقد تجد طبيبا معولما وطبيبًا مهمّشا بمعيار فرص الاتصال بعوالم العلوم والتقدم التكنولوجي. أما أيديولوجيا، فيلخص الباحث المسألة في وجود مغالاة شديدة في الدعوة إلى الذوبان في روح العصر وتقابلها مغالاة شديدة في الدعوة إلى الماضي.

- إذا كانت مجتمعات المركز قد حسمت أمرها مع الدين والعرق، فإنّ عولمة الحداثة برأي أحمد زايد قد فشلت بالقيام بالمثل في المجتمعات التي تقع في طرف الدائرة (المجتمعات العربية من ضمنها). والدليل أنّ الدين والعرق لا يستحضران كشكل من أشكال المقاومة للثقافة الكونية الحديثة فحسب، بل تحولوا إلى أداة توظّف في النضال السياسي.

- تتجه ثقافة العولمة إلى إلغاء كل أشكال الحدود وقد تصل إلى حدود الجسد ذاته. يبين أحمد زايد في تحليلاته كيف أنّ جسد المرأة مثلا في مجتمعات المركز قد تحرر من جميع القيود، في حين تحول جسد المرأة وحياتها في المجتمعات الطرفية إلى موضوع للنقاش الثقافي والديني، وبالتالي إلى موضوع ومصدر للصراع وبذلك تعيد الثقافة المحلية، وفي موضوع المرأة بالذات، إنتاج مكونات تواجه بها العمليات التفكيكية لثقافة العولمة.

عموما يظهر التحليل الذي خص به زايد آليات التكامل والتفكيك، مآخذه المتعددة على نظريات الحداثة التي لا تستشعر تآكل وتفكك الثقافات الوطنية جراء عمليات تدفق العولمة، ومرد ذلك أنّ التناقضات والصراعات المحلية هي تجليات للحداثة وليست معوقا، ومن جهة أخرى يتهم هذه النظريات بانشغالها عن البحث عن شواهد تؤكد حضور الحداثة في المجتمعات الطرفية ولا تنشغل إطلاقا ببناء هذه المجتمعات.